

شَعْرَةُ الحِياة

دراسة في بعض أسجاع العرب الاجتماعية

إعداد:

د. عبدالله بن سليم الرشيد

أستاذ مشارك، قسم الأدب

كلية اللغة العربية

مدخل:

في نثر العرب آثار لم يُلتَقَ إليها، مع كثرة ورودها في كتب المتقدمين، وتردُّ أغلبها على الألسنة، ولم يُخضعها أحدٌ - فيما أعلم - للدراسة الأدبية؛ لأنها ليست كثيرة، وللجهل بقائلها، وتباعد معانيها في الظاهر، واختلاف مناسباتها.

ومن هذه الآثار أقوالٌ ساجع العرب في الأنواء، وهي شائعة مشتهرة، وأقوالُ العرب في أحوال القمر، وأسجاعٌ أخرى أنطقت في بعضها العربُ ما لا ينطق.

وهي أقوال لا يُعرف لها قائل، ولا حَقَّقَ زمن قولها، لأنَّها متداولة في معجمات اللغة وكتب المعاني، والأغلب أنَّها ممَّا قيل في زمن مبكَّر.

وقد رأيت اتخاذها مادة لهذا البحث، مُدخلًا في نطاقه بعض النصوص النثرية التي لم تُنسب إلى قائل معيّن، بل تأتي في سياق (قالت العرب)، أو (العرب تقول)، شريطة أن تكون مسجوعة.

وقد وصفتها بـ (الاجتماعية)؛ لوثيق علاقتها بأحوال المجتمع العربي، من حيث إنها تصوّر أنماطاً من التفكير، وألواناً من وسائل العيش، وطرق التواصل.

وقد جعلت هذه الدراسة في أقسام أربعة، بادئاً بدراسة ما قيل في الأنواء، مثنيًا بدراسة أسجاعهم في أحوال القمر، مُردفًا بدراسة أسجاع على ألسنة الحيوان، ثم بدراسة أسجاع أخرى متفرقة، خاتماً ببيان ما يجمع بين هذه الأسجاع من حيث المعاني والأداء.

١- أقوال ساجع العرب في الأنواء:

١-١ قال أبو حنيفة الدينوري مبيناً أسباب ما قالوا من السجع في الأنواء، رابطاً إياهم ببعض أحوالهم: "وقد سجعت العرب في النجوم أسجاعاً بما أدركوا من طول تجربتهم، أحكم علمها الماضي، وقد ورثها الباقي، فسارت متواترة محفوظة، وهي من أشدّ الأمم تفقداً لذلك وعناية به؛ لأنّ جُلهم فُطّانٌ بوادٍ...تُبَاعُ غيث، قليل على غيره تعويلهم، فأبصارهم إلى السماء طامحة، وبنواحيها مُوكَّلة، يطيبهم البرقُ إذا لمع، والغيث إذا وقع، والماء إذا نقع، ويُطعنهم الحرُّ إذا وهج، ويُجهدُهم البردُ إذا ركد، فهم بين نجعة وحضور، لهم في كلِّ ريح تهب، وكوكب يطلع، ونجم ينوء، أمرٌ مُسهر أو مُنيم"^(١).

وفي كلام بعض اللغويين على هذه الأسجاع لهجة تُعلي قيمتها، وتُبرز ما تنطوي عليه من قيم في المعاني والأداء، يقول الأبهري: "واشدت عنايتهم بما يحدث في الجو من حر وبرد ومطر، وما يتجدد في الأرض من طلوع نبت وبلوغه، وهيجه ويئسه، وما يلزم من العمل والسعي...فوصفوا ذلك عند طلوع كل نجم، بكلام مسجع، يآثره قرن عن

(١) ربيع الأبرار ٥٧/١. وقد جعلت أقوال ساجع العرب في الأنواء ملحقاً أول بهذا البحث.

قرن، ويرويه فيما بينهم خلف عن سلف، ويدرسونه حتى يعرفه الصغير والكبير، وفيها غريب ومعانٍ تدخل في اللغة، لا يعرفها إلا العلماء بها"^(٢).

٢-١ ويستوقف الناظر في هذه الأسجاع، أن من رووها نسبوها إلى (فقيه العرب)، وأحياناً إلى (ساجع العرب).

وفي التعبير عن قائلها أو قائلها ب (فقيه) تنويه بما حوت من المعاني الدقائق، التي يحتاج الناس إلى معرفتها، فليس القائل امرأ لا يدرك مواضع القول ومعانيه، بل هو (فقيه)، ينبغي أن يؤخذ كلامه مأخذ التسليم.

أما التعبير عنه ب(الساجع)، ففيه التفات إلى الأسلوب أو النمط الذي اختير لتكون منسوجة عليه؛ لأنها مسجوعة، وتكاد بعض جملها تكون شعراً.

٣-١ إن هذه الأسجاع التي تتناول الأنواء، توجز ما يقع من تغيرات في الجو، وما يتبع ذلك من اختلاف في التعايش معها، حتى إنها تشمل بعض ما يتعلّق بالمأكل والمشرب والملبس والمنام.

وإذا صحّ حكم الساجع على مظاهر الطبيعة لأنها ليست مما يُخلف في العادة، كقوله: "توقّدت الحرّان"، و"الم يبقَ بعُمانَ بُسرة، إلا رُطبة أو تمرّة"، و"حسرت الشّمسُ القناع، وأشعلت في الأفق الشّجاع، وترقرق السرابُ بكلّ قاع؛ فأحكامه على تصرّف الناس واختلاف سعيهم في معاشهم، أو تدبيرهم لأمر حياتهم لا يعني تحقّق ذلك، بقدر ما هو وصايا ونصائح للتكيف مع تقلبات الجوّ، فقوله: "إذا طلع النجم، اتقى اللحم" نصيحة واضحة، وإن لم تكن مباشرة، ومثلها: "تخوّفت السيول".

(٢) حقائق الآداب ١٥٥. ويذكر أن للعرب من العناية بالفلك والأنواء، ما جعل كثيراً من تسمياتهم لها تنتقل إلى بعض اللغات الأخرى. انظر: أسماء النجوم في الفلك الحديث، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، مج ٥٩، ج ١، ٨٩.

ثم يعمد الساجع إلى أمر آخر قد لا يكون ذا صلة وثيقة بالأنواء وتغيراتها، وهو تقويم طباع الناس، بمدح العمل الحسن وذم السيئ ضمناً:

"إذا طلع السرطان، استوى الزمان، وخضرت الأغصان، وتهادت الجيران"^(٣). فهو هنا ينعت ظواهر طبيعية، ويُحِقُّ به ما يُحَسِّن الحياة في نظره: "تهادت الجيران"، وهو بلا شك مرتبط بواقعهم؛ لأنَّ أحوالهم حينئذ تحسَّن، فيمكنهم التهادي.

ومثل هذا قوله: "إذا طلعت الطرفة، بكرت الخُرْفَة، وكثرت الطُرْفَة، وهانت للضيف الكُفَّة"، فما هذه الجملة الأخيرة - مع انطوائها على البُشْرَى - إلا حثٌّ على إكرام الضيف الذي له في أديباتهم شأن معروف، أمَّا قوله: "إذا طلع السَّمَك، ذهب العِكاك، وقلَّ على الماء اللَّكاك"، فهو أشبه بالنصح والتقويم للسلوك، إذ يحثُّ على إقلال الازدحام على الموارد. وأقول مثل هذا عن قوله: "قصر النهار للصائم؛ إذ يوحى بالحثِّ على انتهاز فرصة قصر النهار بالصيام فيه.

والتوجيه المباشر في هذه الأسجاع قليل جداً، فلم يأتِ إلا في نصٍّ واحد هو قوله: "إذا طلعت الزُّبَانِي، أحدثتْ لَكُلِّ ذِي عِيَالٍ شَانَا... فاجمع لأهلك ولا تَوَانِي"^(٤). ولعلَّ هذه الصراحة في التوجيه هي التي جعلت قوله: "إذا طلع النجم، انقَبَّ اللحم، وخيفَ السُّقْم" يُنسَبُ لـ"بعض أطباء العرب"^(٥).

والساجع يعمد في الغالب إلى الشدائد فيحذِّر منها، ويلفتُّ الناس إلى الاستعداد لها. ويقلُّ في سجعاته ذكر الخصب والنعمة؛ لأنَّه موقنٌ بحاجة الناس إلى التعريف بالطارئ المقلق، والإعداد له، أكثر من حاجتهم إلى تعريفهم بما ينعمون فيه.

(٣) المزهر ٥٢٨/٢.

(٤) الأصل أن يقول: (ولا تَوَانِي)، ولكنه أبقى الألف ليتحقق له السجع.

(٥) الأنواء والأزمنة ٨٧.

وأقواله موجزة مكثفة، فهو يوميئ إلى المعنى إيماءً، ويدلّ ببعض ما يذكر على آخر غيره، فقوله مثلاً: "فلا تغدُون إمرّةً ولا إمرًا" مخصوصٌ في ظاهره بالإمر^(٦)، ولكنه يريد "جميع الغنم، وخصّ الضأن؛ لأنّها أعجز عن الطلب من المعز، والمعز تترك ما لا يدرك الضأن"^(٧). وقوله: "لولا نوء الجبهة، ما كان للعرب رفهة" فيه إيجاز لمعانٍ كثيرة، فنوء الجبهة هو أنفع نجوم السماء، بإذن الله، فمطره نافع للأرض^(٨)، والرّفهة، تشمل الرّفه في المأكل والمشرب والملبس ومرعى النعم وغيرها.

وهذه المعاني التي جاءت في كلام الساجع مؤبّدة ببعض الشعر والرجز، فلبعضهم مثلاً:

إذا سهيلٌ مغربَ الشمسِ طلعَ فابنُ اللبونِ الحقُّ والحقُّ جدعٌ^(٩)

وفي الخرائتين وغيرهما قال الراجز:

إذا رأيت أنجماً من الأسد جبهته أو الخراة والكتد

بال سهيلٌ في الفضيخ ففسد وطاب ألبانُ اللّقاحِ فبردٌ^(١٠)

ما يعني أنّها معانٍ شائعة متداولة، يأثرها خلف عن سلف.

١-٤ أشار البلاغيون إلى أنّ للمعاني ألفاظاً تشاكلها^(١١)، وهو ما يصدّقه كثير من هذه الجمل، فقد ساير اللفظ المعنى في هذه السجّعات، واشتدّ وقع الألفاظ مع اشتداد المعاني، ورقّ لرققتها، مثلما نجد في قوله: "إذا طلع النجم، فالحرُّ في حدم، والعشب في

(٦) الإمر: الضأن.

(٧) المخصص ١٧/٩.

(٨) انظر: الأنواء والأزمنة ٧٤.

(٩) المخصص ١٦/٩.

(١٠) اللسان (خرت).

(١١) انظر: عيار الشعر ١١، وقانون البلاغة ١٥٠.

حطّم، والعانات في كدّم"، ذلك أن نطق هذه الألفاظ وانسيابها (حدم، حطم، كدم) ليس مثل رِقَّة الألفاظ الماثلة في قوله: "إذا طلع سعد السعود، نضر العود، ولانت الجلود، وكُرِه في الشمس القعود"، ففي النَّصِّ الأخير امتداد في النَّفس، يوقِّره المدُّ عند التلقُّظ بـ (العود، الجلود، القعود)، وهو امتداد نفسي مريح لناطقه، يتماهي مع ارتياح القائل للمعاني التي يتغيّاها.

ولكن امتداد النَّفس بالمدود لا يؤدي إلى راحة المتكلِّم إذا اشتمل النص على ألفاظ ليست كذلك، مثلما أجد في قوله: "إذا طلع الإكليل، هاجت الفحول، وشُمِّرت الذبول، وتُخُوِّفت السيول؛ ذلك أنَّ الأفعال التي تواترت فيه (هاجت، شُمِّرت، تُخُوِّفت) - وبخاصة الأخيران اللذان بُنيا للمجهول، فلم يكن التلقُّظ بهما سلساً - هذه الأفعال اعترضت سبيل المدود، فعكَّرت ما توقَّره من راحة للنفس؛ فكان ذلك أوفر لدقة التعبير عن المعاني.

ومن مظاهر دقَّة التعبير مجيء التصغير في قوله (طلع النجم عُديَّةً)، فقد صغَّر الوقت قصداً؛ لأنَّ الحرَّ يحتدم من أول طلوع الشمس^(١٢)، وكذلك التعبير بالفعل (وحوح) في قوله: "وحوح الولدان"، فتكرار الواو والحاء يشاكل ما يُسمَع منهم عند تشكِّي شدة البرد. وهذه الدقَّة تويِّد وجهة النظر التي رأيت أن الأدب القديم - وبخاصة ما كان شفويّاً - كان أكثر توفيقاً في معالجة اللغة^(١٣).

وجرس الألفاظ في الغالب مناسب للمعاني، فالنص المذكور سلفاً: "إذا طلع النجم، فالحرُّ في حدم..."، احتوى (الدال)، وهو حرف انفجاري مجهور، و(الحاء والراء والعين)، وهي أحرف مجهورة، وجاء تركيب الألفاظ مناسباً لكلمة (النجم) إيقاعياً، وهو ما سماه

(١٢) انظر: الأنواء والأزمنة ٨٥.

(١٣) انظر: محاورات مع النثر العربي ٣٥٣.

بعض القدماء (تعادل الوزن)، وهو مستحسن في نظرهم ومطلوب^(١٤)، وقد تمثلت فيها الشدّة المرادّ التعبير عنها، فالألفاظ فيه تابعة للمعاني، وهو ما اشترطه بعض البلاغيين للحكم على السجع بالجودة والإحكام^(١٥).

وقد حمل المتن اللغوي في أغلب هذه الأسجاع إحساس الإنسان بما في الكون من قوة وطاقة، يعجز تجاهها^(١٦)؛ ففيها تعبير بصيغ تدلّ على وقوفٍ حائرٍ لا يستطيع إلا التسليم بالأمر، مثل: "تشف الثرى، وأجن الصرى"، و"اقشعرّ السّفْر"، و"اشتدّ الزمان"، و"أعجلت الشيخّ البؤلة، واشتدّت على العيال العؤلة". إنّ كلّ هذه التغيرات تظهر عجز الإنسان وضعفه؛ إذ إنّّه يجد بعض آثارها في ماله بل في نفسه، فلا يستطيع إلى دفعها سبيلاً.

٥-١ وحيث إنّ الساجع محكوم بكلمات لا بدّ أن يبيّن عليها أسجاعه، كان مجال الانتقاء عنده ضيقاً، إذ ليس هو كمن يبتدئ الكلام بما شاء من الألفاظ. ثم إنّّه بعد ذلك محكوم بمعانٍ لا بدّ أن يحيط بها، ويستوعبها، فهي مستحوذة على اهتمامه. والاضطرار إلى المعاني في البلاغة أشدّ منه إلى الألفاظ^(١٧).

ومن ثمّ كانت البراعة في الصياغة المسجوعة، المحوّطة بما ذُكر، الملزوزة في قرّن، كانت أظهر، ودلائلها على تمرّس الساجع بفنون القول والمهارة الفنية أكبر.

وبناء هذه الأقوال على السجع المتكلّف لا يقدح في قيمتها؛ مثلما لا يقدح تكلف الوزن والقافية في الشعر^(١٨)، ذلك أنّ المقاصد التي يريدها القائل تجعل السجع أساساً

(١٤) انظر: قانون البلاغة ٢٨.

(١٥) انظر: المثل السائر ٣١٣/١.

(١٦) انظر: الرؤية الإنسانية في حركة اللغة ١١٢.

(١٧) قانون البلاغة ٢٧.

(١٨) انظر: إحكام صنعة الكلام ٢٢٨.

في كلامه. و"السَّجْع من مميّزات البلاغة الفطرية، فهو في أكثر اللغات يجري باطراد في الحِكم والأمثال"^(١٩)، وقد عُرف ميل الأذواق العربية إليه منذ الجاهلية^(٢٠)، فهو هنا متّصل بما عُرف به كثير من النثر العربي. وهو منهج في بناء الكلام رأى بعض الباحثين أنه يورث المهابة، ويحفظ السيرورة، وأنه مظهر من مظاهر الافتتان بالقول^(٢١).

وغالب سجعاته جاءت مناسبة مع السياق الذي هي فيه، ولم يُضطرَّ لتغيير كلمة، إلا كلمة (الطَّرْف)^(٢٢)، فقد جعلها (الطَّرْفَة)؛ ليستوي له السجع^(٢٣).

٦-١ وقد وُفق الساجع إلى استثمار ألفاظ الأنواء في بناء ألوان من البديع، كالمجانسة بين (الطَّرْفَة) و(الطَّرْفَة)، و(الهَقَّة) و(الفقعة)، و"جاء الشتاء كالكلب، وصار أهل البوادي في كرب"، ولزوم ما لا يلزم، مثل: "إذا طلعت الطَّرْفَة، بكَّرت الخُرْفَة، وكثرت الطَّرْفَة"، و: "إذا طلعت البلدة، زَعلت كلُّ تُلْدَة".

ويُلاحظ غيابُ فئتين من البديع كثيرَي الورود في كلام العرب، وهما الطباق والمقابلة، فليس في هذه الأسجاع شيء منهما، والعلة في نظري بادية، وهي أن ألفاظ كلِّ نص قيل في نوء من الأنواء تأتي غير متضادة، لأنها تخدم معنى واحداً في الغالب، فما قيل في نوء الشؤلة - مثلاً - كلُّ جملة يفيد معنى اشتداد البرد، وما قيل في سعد السعود يفيد معاني طيب الزمان: "ذاب كلُّ جمود، واخضرَّ كلُّ عود، وانتشر كلُّ مَصْرود".

(١٩) النثر الفني في القرن الرابع ٧٥/١.

(٢٠) انظر: السابق ٨٥/١.

(٢١) انظر: محاورات مع النثر العربي ٤٨، ٤٩.

(٢٢) الطَّرْف: كوكبان بين يدي الجبهة، يقال: هما عينا الأسد، ولذا قيل لهما (الطَّرْف).

(٢٣) انظر: الأنواء والأزمنة ٩٧.

٧-١ تسيطر على هذه الأسجاع الجُمْل الفعلية، وشدَّ عنها أسجاع ثلاثة في طلوع النجم (الثريا): "إذا طلع النجم، فالحرُّ في حَدم، والعُشب في حطم، والعانات في كَدم". "إذا أمسى النجمُ بَقَبَل، فشهْرُ فتى، وشهْرُ حَمَل، وإذا أمسى النجمُ بَدَبَر، فشهْرُ نَناجٍ وشهْرُ مطر، وإذا أمسى الثريا قَمَّةَ راس، فليلَةُ فتى وليلَةُ فاس"، وفي طلوع الدلو: "إذا طلعت الدَّلُو، فالربيع والبدو، والصَّيف بعد الشَّتو".

وإنما غلبت الجمل الفعلية؛ لأنها أسجاعٌ تنظَّم شؤون الناس، وتبيِّن لهم ما يفعلون في كل أوان، والجمل الفعلية مرتبطة بالحركة والتغيُّر، وما هذه الأسجاع إلا إيجاز لتغيرات الأجواء وتبدُّل الأزمان، ما بين قيظ قائظ، وصيف لافح، وخريف جاف، وشتاء قارس، وربيع زاهر، فكان الانصراف إلى التعبير عن ذلك كلِّه بالأفعال أدعى للتوازن مع طبيعة الزمان المتغيرة، ومن أجل إيقاع الحقائق في النفوس.

إنَّ اللغة في هذه النصوص وأشباهاها تتراءى في حال حياة وحركة^(٢٤)، من خلال الأفعال المتوالية، التي جاء الساجع بها على أنَّها حقائق واقعة، فيخبر بما سوف يقع، اعتماداً على التجربة، فما وقع سلفاً يتكرَّر خلفاً.

وهو يعبر عن كلِّ أحوال الزمان بالجملة الشرطية المبدوءة بـ (إذا)، ولهذا الحرف دلالة القطع بوقوع ما بعده^(٢٥)، فلا محيد له عن التعبير به؛ لأنَّ اختلاف الزمان وتتابع الأنواء وما يقع فيها أمر محتم.

على أن تلك الجمل الاسمية القليلة تحتوي معاني الحركة والمغالبة والتوتر، فمعانيها تخدم الجوّ العامَّ الذي تعبَّر عنه هذه الأسجاع.

٨-١ استوقفني في تلك الأسجاع أنَّ البناء للمجهول يأتي للفعل الذي يقع من الناس: "جُبِّي النخلُ بكرة... ولم تُترك في ذات درِّ قطرة"، "متميِّز عن المياه زُلفة"، "رُفع

(٢٤) انظر: الرؤية الإنسانية في حركة اللغة ١١٩.

(٢٥) انظر: بغية الإيضاح ٢١٦/١.

كَيْلٌ، وَوُضِعَ كَيْلٌ وَقِيلَ"، "ضُرِبَ الْخَبَاء... وَكُرِهَ الْعَرَاء"، "سُمِّرَتِ الذِّيُولُ، وَتُخُوِّفَتِ السِّيُولُ"، "أَكَلَتِ الْقَشْدَةَ"، "زُمَّتِ الْأَسْقِيَّةُ"، "هَيْبَ الْجَزْوِ"، "اِقْتَضَى الدِّينَ"، "اَتَّقِيَ اللَّحْمَ، وَخِيفَ السُّقْمَ".

أَمَّا الْفِعْلُ الَّذِي لَا يَدُ لِلنَّاسِ فِيهِ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ ظَاهِرَةٌ طَبِيعِيَّةٌ، أَوْ سَلُوكٌ مِنْ سَلُوكِ الْحَيَوَانِ، فَهُوَ مَبْنِيٌّ لِلْمَعْلُومِ أَوَّلًا: "تَوَقَّدَتِ الْحِرْزَانَ، وَاسْتَعْرَتِ الدَّبَّانَ، وَنَشَّتِ الْعُدْرَانَ"، "تَوَقَّدَتِ الْمَعْرَاءَ، وَكَنَسَتِ الطُّبَاءَ"، "حَسَرَتِ الشَّمْسُ الْقَنَاعَ، وَأَشْعَلَتْ فِي الْأَفْقِ الشَّعَاعَ، وَتَرَقَّرَقَ السَّرَابُ بِكُلِّ قَاعٍ"، "طَابَ الْهَوَاءُ"، "تَرَبَّلَ النَّضْرُ"، "نَضَرَ الْعُودَ"، "كَثُرَ النَّعْدُ"، "اسْتَوَى الزَّمَانُ، وَخَضِرَتِ الْأَغْصَانُ"، "تَزَيَّنَتِ الْأَرْضُ كُلَّ الزَّيْنِ".

وَسَرَّ اعْتِمَادَ الْمَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ فِيمَا هُوَ مِنْ عَمَلِ الْإِنْسَانِ، انْطَوَاهُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ التَّخْوِيفِ فِي بَعْضِهَا مِثْلَ: "وَسُمِّرَتِ الذِّيُولُ، وَتُخُوِّفَتِ السِّيُولُ"، إِضَافَةً إِلَى أَنْ تَشْمِيرَ الذِّيُولِ وَتَخْوُفِ السِّيُولِ لَا يَقَعُ مِنَ النَّاسِ كَلِمَةً، فَنَاسِبٌ حِينَئِذٍ أَنْ يَكُونَ الْفَاعِلُ مَجْهُولًا. وَقَوْلُهُ: (زُمَّتْ، هَيْبَ، ...) هُوَ أَدْعَى لِإِيْقَاعِ الْهَيْبَةِ وَالتَّوَجُّسِ، وَالْحِصْنَ عَلَى الْاسْتِعْدَادِ، وَهَذَا مِمَّا قَصَدَ إِلَيْهِ السَّاجِعُ، فَهُوَ إِذْ يَقُولُ (زُمَّتْ) يَرِيدُ (زُمُّوا)، وَإِذْ يَقُولُ: "سُمِّرَتِ الذِّيُولُ، وَتُخُوِّفَتِ السِّيُولُ" يَرِيدُ (سَمِّرُوا.. وَاحْذَرُوا).

وَمِنْ دَوَاعِي الْعُدُولِ إِلَى الْمَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ كَوْنُهُ أَكْثَرَ تَحْقِيقًا لِلإِيجَازِ الَّذِي تَمْتَازُ بِهِ تِلْكَ الْأَسْجَاعُ.

أَمَّا الْبِنَاءُ لِلْمَعْلُومِ فِي مِثْلِ: "حَسَرَتِ الشَّمْسُ الْقَنَاعَ، وَأَشْعَلَتْ فِي الْأَفْقِ الشَّعَاعَ، وَتَرَقَّرَقَ السَّرَابُ بِكُلِّ قَاعٍ"، فَهُوَ أَمْرٌ حَتْمِيٌّ الْوَقُوعِ، لَا يَدُ لِلْإِنْسَانِ فِيهِ، وَلَا بَدَ فِيهِ مِنْ ذِكْرِ الْفَاعِلِ؛ دَفْعًا لِلتَّوَهُّمِ، فَلَوْ قَالَ مِثْلًا: (أَشْعَلَ الشَّعَاعَ)؛ لَاتَّبَسَّ الْمُرَادُ بِهِ، فَهَلْ هُوَ شَعَاعُ الشَّمْسِ، أَوْ هُوَ شَعَاعٌ يَشْعَلُهُ الْبَشَرُ؟، ثُمَّ إِنَّ التَّصْرِيحَ بِاسْمِ (الشَّمْسِ) فِي هَذَا السِّيَاقِ مَهْمٌ جَدًّا؛ لِعِلَاقَتِهَا الشَّدِيدَةِ بِمَا يَطْرَأُ عَلَى الْمَنَاحِ مِنْ تَغْيِيرِ.

١-٩ كان ممّا اشترطه ابن الأثير للكلام المسجوع "أن تكون كلُّ واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالةً على معنى غير المعنى الذي دلّت عليه أختها"^(٢٦). وهذا هو ما توافر في هذه الأسجاع، فإنَّ كلَّ جملة تضيف معنى جديداً في الغالب، فقوله: "إذا طلعت الدَّلُو، هَيْبَ الْجَزُو، وَأَنْسَلَ الْعَفُو، وطلب الخَلُو اللّهُو"، أفاد أموراً ثلاثة، أمراً يتعلّق بالنبات، وثانياً يتعلّق بالحيوان، وثالثاً يتّصل بالإنسان. وقد استغرق هذا التعبير الموجز أهمّ مكوّنين من مكوّنات البقاء في حياة الإنسان.

وبعضها هو نوع من الإطناب، كقوله: "إذا طلع القلب، جاء الشتاء كالكلب، وصار أهل البوادي في كَرْب"، فالجملة الثانية (وصار...) هي ضربٌ من الإطناب؛ فقد أفادت الجملة التي قبلها معنى اشتداد البرد.

١-١٠ يبدو لقارئ هذه الأسجاع ما تختزن من صور فنية، أغلبها صورٌ حقيقية، تمثّل من خلالها صورة المجتمع العربي - أو جزء منه في الأقل - في أحوال الكرب والجذب، والنعيم والخصب، ولكنها تحوي إلى ذلك صوراً تُوسّل في تركيبها بضروب من البيان، أبرزها الاستعارة، مثلما في قوله: "جرى السرابُّ على الأكم"

"حسرت الشمسُ القناع"

"وقيل للبرد: اهدّه"

وهي استعارات يشي بعضها بما أوتي الساجع من قدرة بيانية، فقد شخّص المعنويات في بعض هذه الأمثلة، واستقام له التعبير غاية الاستقامة حين جعل الناس - لشدّة ما يعانون - يناشدون البرد: اهدّه.

إنَّ الاستعارة تُوفّر "تلاقياً بين سياقين ودالتين، فالكلمة المستعارة من محيط بعيد عمّا يجري في السياق الأساسي لا تنفصل دلالتها وتتحول، بل هي تحمل ظلال السياق

(٢٦) المثل السائر ١/٣١٦.

القديم، وتكتسب من هذا الإطار الدلالي الجديد، فتغدو كلمة جديدة^(٢٧)، وأضرب المثل باستعارة الساجع الفعل (تزيّن) في قوله: "تزيّنت الأرض كلّ الزين"، فقد جاء به من محيط أنثوي؛ لأنّ الغالب فيه أن يُستعمل مع النساء، فهنّ في الغالب ذوات الزينة. واستعارته إياه لما حفلت به الأرض من مظاهر الربيع صرّح بالمعنى المراد في سياقه الجديد، ولم يفارق ظلال سياقه الأول، فالأرض وربيعها عند العربي هي الحياة، مثلما تُعدّ المرأة جزءاً مهماً من الحياة أيضاً. والجدّة هنا في صبغ الأرض بصبغة أنثوية محبّبة.

وكذلك استعارته (توقّد) في قوله: "توقّدت المَعزاء"، فقد كانت ناجعة في إسباغ صفة جديدة على (المَعزاء) - وهي الأرض الصلبة-، إذ تتمثّل للسامع ناراً تلهّب، لا حجارة.

ومن التشبيهات النادرة في هذه الأسجاع قوله: "جاء الشتاء كالكلب"؛ واختيار الكلب للتشبيه موقّق؛ لصلته بحياتهم ومعرفتهم بطبائعه، وبخاصة حين يكون ضالاً مُصْحِراً، والبرد يزداد قسوة وشدّة في الصحراء. وجذر (ك ل ب) تجتمع فيما يُشتقّ منه معاني الشدّة والجهد والإلحاح، ومنها الكلب، وهو اشتداد البرد^(٢٨).

وأكثر أقوال الساجع تعتمد الكناية، مثل: "وجعل صاحب النخل يرى"، مكنيّاً عن إطلاع النخل، فصاحبها يرى الثمرة وقد كبرت، و"جنيّ النخلُ بُكرة"، وإنما يُجنى بُكرة فراراً من الحر^(٢٩)، "ورمتْ بأنفسها حيث شاءت الصبيان"، كناية عن طيب الهواء وانكسار البرد، "وتلاقت الرعاء بالنائم"، قيل في شرحها: "لأنهم حينئذ يفرغون، ولا يشغلهم رعي، فيتلاقون ويدسّ بعضهم إلى بعض أخبار الناس"^(٣٠).

(٢٧) جماليات الأسلوب ١٢٠.

(٢٨) انظر: أساس البلاغة (كلب).

(٢٩) الأنواء والأزمنة ٩٦.

(٣٠) السابق ١١٣.

وهذه الصور الفنية مكتملة العناصر، فهي مستقاة من عالم حسّي، "ابتغى الراعي شكّيّة"، "نشّت العُدران"، "عرقت العُباء". ولا شكّ في أنّ "الصور الحسيّة التي تعبّر عن موقف إنساني عام هي أكثر الصور تأثيراً"^(٣١). وأكثرها يعبّر عن الطبيعة البديّة الغالبة على العرب، فالألفاظ مشتقة من تلك البيئة، وصادرة عنها.

وهي وثيقة الصلّة بعالم نفسي يعيشه الساجع، وما تلك الجمل التي تحوي توجيهاً إلا ترجمة لأراء الساجع في الحياة والناس.

والانفعال ظاهر فيها، فقوله مثلاً: "تنازّت السفّهة، وقلّت في الأرض الرّفّهة"، يعبّر عن انفعال الساجع تجاه بعض ما لا يرضى من واقعه في الجملة الأولى - واختيار لفظ (السفّهة) مؤدّب بهذا - وانفعال نفسيّ آخر تجاه ما يرى الناس عليه من الضيق وقلّة المتع في الجملة الأخرى. وقوله: "وصار أهل البوادي في كرب"، تعبير دقيق عمّا يقاسيه أهل البوادي عند احتدام البرد، وقد عبّر عنه بصورة فنية تترجم ذلك التفاعل الذي يعيشه الساجع مع قومه.

أمّا القيمة، فهي متمثّلة في إعطائها صورةً كاملة عن أحوال العرب مع تقلّب أجوائهم، ويمكن عدّ أسجاع الأنواء - مجتمعةً - صورةً كليّة، أشبه بلوحة فنية، توجز أحوال العرب في معاشهم وسبل تكيفهم مع بيئتهم، وما يطرأ عليها من تغيرات.

وقيمة الكناية بخاصة - وهي الغالبة على الأسجاع - تتجلّى في ثنائية الدلالة، لأنّ اهتمام القائل - والسامع من بعد - يصل إلى الزاوية المؤثرة في كيان التجربة^(٣٢)، وهي التي يكون الإلحاح عليها، والعناية بها، فقوله مثلاً: "وصار في الأرض لمع"، كناية لطيفة عن العشب، جنح من خلالها الساجع إلى إحداث هزة الطرب بالفأل؛ لأنّ نبات العشب والتماعه هو من أكبر مظاهر استمرار الحياة عندهم.

(٣١) الصورة الفنية في النقد الشعري ٨٨.

(٣٢) انظر: جماليات الأسلوب ١٤٢.

١ - ١١ ما الذي دعا العرب إلى أن يجعلوا كلامهم على هذا النحو من الأتساق والإيجاز؟، ولم آثروا أن يكون تقييد المعارف محكوماً بتلك الصياغات؟

إنَّه الحاجة إلى نقل التجارب أولاً، ذلك أن تعاهد المعاني بصياغة موجزة واضحة موقعة أدعى إلى بقائها على الألسن، وانتقالها من جيل إلى جيل، والعمل بمقتضاها.

وهذا القصد مشهودٌ له بالتحقق، وهو قصدٌ صرح به بعض البلغاء، فعبد الصمد الرقاشي، يُسأل: لِمَ تُؤثِر السجع على المنثور، وتُلزِم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟^(٣٣)، فيقول: "إنَّ كلامي لو كنت لا أملُ فيه إلا سماع الشاهد، لقلَّ خلافي عليك، ولكني أريدُ الغائبَ والحاضر، والراهنَ والغابر، فالحفظُ إليه أسرع، والآذانُ لسماعه أنشط، وهو أحقُّ بالتقييد، وبقلَّة التفلُّت، وما تكلمت به العرب من جيِّد المنثور، أكثر مما تكلمت به من جيِّد الموزون"^(٣٤)، فلم يُحفظ من المنثور عُشره، ولا ضاع من الموزون عُشره"^(٣٥). وهذا القول صريح الدلالة على أنه كان يُنظر إلى الكلام المسجوع نظرة تقدير^(٣٦)، وأنَّ السجع عنصر كريم في بلاغة العرب^(٣٧).

ثم إنَّهم حريصون على أن يظلَّ للكلمة سحرها وبريقها في أبنائهم وحفدتهم، فهم يُعنون بها في سياقها العام وسياقها الخاص، لإدراكهم قيمة البيان والبلاغة.

فأمَّا السياق العام، فلأنَّها تخدم طبيعة البيان العربي، من حيث إيثاُر الجزالة والفخامة، وتلويُّن القول بكلِّ ما يُقتدر عليه من ألوان البلاغة.

(٣٣) المراد بالقوافي وإقامة الوزن هنا أن يكون الكلام مسجوعاً.

(٣٤) المراد بالموزون الكلام المسجوع أو المزوج.

(٣٥) البيان والتبيين ٢٨٧/١.

(٣٦) انظر: النثر الفني في القرن الرابع ٩٥/١.

(٣٧) انظر: السابق ١٠٧/١.

وأما السياق الخاص، فلأنَّ فيها ما يسمُّها بِمِيسَم ذي صبغة مائزة، فهي تدور في فلك تنظيم الحياة، وإيجاز متطلباتها المعيشية، وألفاظها وتراكيبها تشي بخصوصيتها.

١-١٢ ليس الساجع في رأبي امرأ واحداً، ولم تصدر تلك السجعات عن لسان واحد، ولكنها أقوال تراكمت، ومزّت بقرون عدّة، فصقلتها التجارب، وهذّبتها المعارف المتجدّدة، وأضيف إليها وزيد فيها، بدليل أنّه قيل في بعض الأنواء أكثر من نص، ولاختلاف الروايات في بعض النصوص، وفي بعضها ما يدلّ على تأخر زمنها؛ لأنّها صارت أقرب فهماً، وأضحت لغتها ألين، مثل: "إذا طلعت الزباني، فاطلب ما يكفيك زمانا، واستعدّد لشتائك ولا تواني"، ودخل في بعضها العامي مثل: (أحبُّوا إلى الوليف الرجعة).

بل إنّ بعضها حوّر ليكتمل إيقاعه فيعدّ شعراً، فقوله: "إذا طلع النجم غدّيّة، ابتغى الراعي سُكّيّة". غيّر بحذف (إذا)، فصار بيتاً من مجزوء الرمل^(٣٨)، ومثله قوله: "إذا طلع النجم غدّيّا، ابتغى الراعي سُقيّا"، وقوله: "إذا طلع النجم عشاءً، ابتغى الراعي كساءً"، فقد حذفت منهما (إذا) كالأول. ثم زيد انزياح الأخيرة فصارت:

إذا الثريا طلعت عشاءً فبغ لراعي غنم كساء^(٣٩)

وهذا الشعر المُستوّد من ذلك النثر الفني، يؤكّد ما ذهب إليه الجاحظ من أن "الشعر حديث الميلاد"^(٤٠)، وكأنّ الذي نثره ابتداءً كان يضمّر أن يقوله شعراً، ولكنّه كان في موقف ارتجال، فلم تسعفه القدرة أو القرحة على أن يأتي به موزوناً.

(٣٨) انظر: اللسان (شكا).

(٣٩) الأنواء والأزمنة ٨٥.

(٤٠) الحيوان ٧٤/١.

١-١٣ إسباغ الشعرية على الأساليب عند وصف التصرف في المعاش، يكاد يكون دأب جُلّ العرب بادية وحاضرة، سأل عبد الملك بن مروان رجلاً من العرب: كيف علمك بالكواكب؟ فقال: لو لم أعرف منها غير النجم^(٤١) لكفاني:

إذا طلعت من المشرق حصدت زرعي

وإذا توسّطت السماء جردت نخلي

وإذا سقطت في الغرب دفنت بذري

هذا تدبير معيشتي^(٤٢).

١-١٤ إنّ هذه الأسجاع التي تحفظ مظاهر تغير الجو، بهذا النمط الموجز المكثف، الذي يستغرق المعاني، ويفصل بعضها، هي - في رأيي - إرهاباً للمنظومات العلمية التي راجت بعد القرن الثاني؛ ويمكن عدّها مهاداً وثيراً قدح فكرة النظم العلمي، ويسر لها أن تنمو وتعظم فيما بعد.

٢- القمر الشاعر:

٢-١ التفت العرب إلى القمر ومنازله، فعبروا عنها تعبيراً شعرياً، كان فيه القمر في موقف من يُسأل عن أحواله، فيجيب إجابات فيها نفس شعري^(٤٣).

فهو يصف حاله في كل ليلة، ويبين مقدار بقائه في السماء، بأسلوب توافرت فيه خصائص التعبير اللغوي البليغ المحكم، الذي يومئ إلى المعنى ويوحى به، ولا يجعله صريحاً مكشوفاً.

(٤١) يعني الثريا.

(٤٢) انظر: نثر الدر ٥٨/٦.

(٤٣) وقد جعلت أقوال العرب في أحوال القمر ملحقاتاً ثانياً بهذا البحث.

وهذه السجعات في أحوال القمر تعليم أو تدريب على البيان، فإنَّ بلاغة الإيجاز، وضروب البيان فيها يمكنُ أن تُعدَّ أنموذجاً يُحتذى، وهل يبعدُ أن يكون قائلها قاصداً هذا المقصد؟

٢-٢ وتتماهى معاني هذا السجع مع معاني الإنسان نفسه وحياته، فالقمر - وهو ما أميل إلى أنه اتُّخذ رمزاً للإنسان - في الليلة الرابعة عشرة يقول: "أغشى دُجَنَاتِ السحاب"، والتعبير بالغشيان يتوقَّر على قدر كبير من الإيحاء بالقوة^(٤٤)، وهو ما يريده الساجع رمزاً للإنسان، فهو في منتصف عمره قوي شديد. ثم يقول في الليلة الخامسة عشرة: "تمَّ الشباب، وانتصف الحساب"، وفي إحدى ليااليه الأخيرة يقول: "دنا الأجل، وانقطع الأمل".

٣-٢ لقد أحسن الواضع اختيار الألفاظ لمعانيه، فعمد إلى التصغير للدلالة على القليل في قوله "رضاع سُخَيْلَة، حلَّ أهلها بزميلة"، واستعمل لفظ (الخشوع) دالاً به على مقدار النقص الذي أصاب القمر: "بطيء الطلوع، بيِّن الخشوع"، والاستعمال المجازي لـ (خشع) ثريٌّ بالمعاني، فهو يشمل الانكسار وخضوع البدن والصوت والبصر^(٤٥)، ففيه دلالة دقيقة على المراد.

وأوجز غاية ما يكون الإيجاز، وكلَّ الأسجاع موجز، غير أن من أمثل النماذج على هذا هو قوله: "سِرُّ وِبْت"، وهو يريد "سِرٌّ في وِبْت، فإنني أبقى بقدر ما يبيت إنسان ويسير"^(٤٦)، وقوله: "لا أطلع إلا ريثما أرى".

(٤٤) أغلب ما يُشْتَقُّ من جذر (غشا) ينطوي على معاني العلق والملازمة الدائمة. انظر:

اللسان (غشا).

(٤٥) اللسان (خشع).

(٤٦) المخصص ٢٩/٩.

٤-٢ وألفاظ سجعات القمر شديدة الصلة بالبيئة العربية (البدويّة) في الغالب،
كهذه الطائفة: (سُخيلة، زُميلة، خَلِفات، دُلجة الضبُع، الجَزَع)^(٤٧)، وسائرها وبخاصة ما
قيل فيما بعد الليلة العاشرة تتعق الألفاظ فيه من صلتها بهذه البيئة، وهذا ما يجعلني
أميل إلى أنها ممّا أضيف في زمن متأخّر، وقد نقل بعض العلماء أنّه لم يُنقل عن
العرب فيما بعد الليلة العاشرة شيء^(٤٨). فالعشر الأوّل على هذا أعرابية، وسائرها
حضري.

٥-٢ والصور في هذه السجعات في الليالي الأولى ذات صلة وثقى، أيضاً،
بالبيئة الصحراوية، على خلاف سائر ما في الليالي الأخرى. فالصور الأعرابية في قوله
"رضاع سُخيلة"، و"دُلجة الضبع"، و"عشاء خَلِفات فُعس" مباينة لهذه الطائفة من الصور:
"قمرٌ باهر، يَعشَى له الناظر"، و"أسبق شعاع الشمس"، و"أطلع كالقَبَس"، فهذه الثلاث
الأخيرة صنعةٌ حضريّة. وهذا ما يثير السؤال: أكان بعض النتاج الفني عند العرب إبداعاً
متراكماً صاعته أجيال متلاحقة؟ وهل يعني هذا أنّ في أدبنا القديم ما يمكنُ عدّه ملحمة
لغوية، تضافرت في إنشائها وتنقيحها عقول وقرائح، تنتسب إلى بيئات متعددة؟
إنّ ما وجدته في هذه الأسجاع يميل بالرأي إلى هذا، ولعلّ محاوره هذه النصوص
بمنهج أحكم وأعمق يعطي جواباً فاصلاً.

٣ - الحيوان البليغ:

(٤٧) وهذه كلّها ممّا قيل في ليالي العشر الأوّل.

(٤٨) انظر: التذكرة الحمدونية ٣٥٥/٧.

٣-١ ذهب العرب مذهباً آخر في شِعْرنة الحياة، فأنطقوا الحيوان بما يختصُّ رؤيتهم للشدائد التي يعانون منها، فجعلوا البهائم التي تعيش معهم تجيب عن سؤال، وكأنَّها في موقف اختبار، فقد قيل للعنز: ما أعددتِ للشتاء؟ فقالت: "الذَّنْبُ أَلْوَى، والاسْتُ جَهْوَى"^(٤٩)، ويُرْوَى: "يا عنز، جاء القَر. فقالت: يا ويلي! ذنْب أَلْوَى، واستُ جَهْوَى"^(٥٠)، وقيل ذلك للضأن، فقالت: "أَجَزُّ جُفَالَا، وَأَوْلَدُ رُخَالَا، وَأَحْلَبُ كُتْبًا تِقَالَا، ولن ترى مثلي مالا"^(٥١).

ويُرْوَى بعض ذلك عن المعزى، فهي تقول: "العظمُ دُفَاق، والجلدُ رُفَاق، واستُ جَهْوَى، وذنْبُ أَلْوَى، فأين المأوى؟"^(٥٢). وسئل الحمار: ما أعددتِ للشتاء؟ قال: "جبهةٌ كالصَّلاة، وذنْباً كالوَتْرَة"، وقيل: إنه قال: "حافراً كالظُّرر، وجبهةً كالحجر"^(٥٣). وقيل

(٤٩) المزهر ٥٤٦/٢. وجهوى: مكشوفة. ويوحى كلام ابن قتيبة بأن ما قالوه على ألسنة البهائم كثير. انظر: عيون الأخبار ٧٤/٢. ولكن ما وجدته منها قليل.
(٥٠) اللسان (جها).

(٥١) عيون الأخبار ٧٨/٢، والمزهر ٥٤٦/٢. واللسان (جفل)، والأزمنة والأمكنة ٢٣/٢. وفيه تحريف. والجُفال: الصوف الكثير، والمعنى: "أَجَزَّ بمرة واحدة، وذلك أن الضائنة إذا جُرَّت فليس يسقط من صوفها إلى الأرض شيء حتى يُجَزَّ كلُّه ويسقط أجمع". والرُخال والرِّخال: جمع رُخْل ورِخْل وهو الأنتى من ولد الضأن، والكُتْب: جمع كُتْبة، وهي ملء القدح من اللبن. تقول: "أَحْلَبَ دُفَعاً تِقَالاً من اللبن، وذلك لأنَّ لبنها أَدَسَم وأخثر من لبن المعز".
عيون الأخبار ٧٨/٢.

(٥٢) المزهر ٥٤٧/٢. وانظر: عيون الأخبار ٧٤/٢، والأزمنة والأمكنة ٢٤/٢. وفي روايته تحريف.

(٥٣) المزهر ٥٤٧/٢، والصَّلاة: حجر عريض يُدَقَّ به العطر أو الهَبِيد، والظُّرر: الحجر المدوَّر، وقيل: الحجر إذا كان له حدُّ كحدِّ السكين.

للكلب: ما أعددتَ للشتاء؟ فقال: "ألوي ذنبي، وأريض عند باب أهلي" (٥٤)، ورؤي: "أحوي نفسي، وأجعل أنفي عند استي" (٥٥).

٢-٣ أو يمكن أن نعدَّ هذه الأقوال ضرباً من المسامرات الساذجة التي تُرجى بها الأوقات فحسب، وبخاصة أنَّها متصلة بليالي الشتاء، وهي ليالٍ طوال، أم أنها ذات دلالات اجتماعية ونفسية؟

إنَّ ما تُنطقُ به تلك الدوابِّ والنَّعم كافٍ لأن نجد فيه بعض ما يكشف جوانب من اهتمامهم، فالفخر طاغٍ عليهم، ولا شكَّ أنَّ إثارة اقتناء الإبل هو الذي دعاهم إلى إنطاق المعزى بذلك القول الذي يُظهرها ضعيفة مستضعفة. وبخاصة أنَّ ما أنطقوا به الناقة لا يدلُّ إلا على أنَّها لا تكلفهم شيئاً، إذ قالت لِمَا سُئلت عما تفعل في الشتاء: "أبُرك بالعرأ، وأولُّها الذرا" (٥٦).

وبعضها يحوي -كما بدا من جواب الضأن- ما يُبين شيئاً ممَّا يدور في مجالسهم من مفاخرة أو مفاضلة بين امتلاك الضأن وغيرها.

أمَّا جواب الكلب، فيدلُّ على مبلغ حاجتهم إليه؛ ولذا هو باقٍ عند سيده، مرابطاً عند خبائه، وما قيل فيه من الشعر يؤيد هذا (٥٧).

وقد يكون مرادهم من تلك الأجوبة هو الوصف المجرد، أي إنهم يصفون أحوال الحيوان عند اشتداد البرد، وفيه تعليم لمن لا يعلم طبائعها.

٣-٣ إنَّ من مقاصد هذه الأقوال المقصد التعليمي، فهم يُعلِّمون بعض طرق الصيد، وأحوال المصيد، فما لم يكن الصائد حاذقاً، فلن يقدر على صيد الأرنب الشديدة

(٥٤) المزهري ٢/٥٤٧.

(٥٥) الأزمينة والأمكنة ٢/٢٤.

(٥٦) الأزمينة والأمكنة ٢/٢٤.

(٥٧) انظر: الحيوان ٢/٢٧-٤٥، ٧٠، ٨٣، والحيوان في الأدب العربي ٣/٢٣٠-٢٣٦.

العدو. غير أنهم لم يُعلِّموا بطريقة عابرة، وبأسلوب عادي، بل عمدوا إلى الاستعانة بالبيان العالي، ترسيخاً لهذه الثقافة في الأذهان. وقد قالوا على لسان الأرنب: "اللهم اجعلني خُدْمَةً لُدْمَةً، أسبقُ الأَكْفُ بِالْأَكْمَةِ"^(٥٨)، ومثل ذلك حوارٌ أجروه بين الأرنب والعنز، إذ قالت الأرنب لها: "لا عَفَطتِ ولا نَفَطتِ، فقالت العنز: لا مررتِ إلا على حاذقٍ باذق"^(٥٩).

وأرى أنه يصدق على هذه الأسجاع ما قاله بعض النقاد من أن إنطاق الحيوان كان احتيالياً "على إيصال ما في النفس، في بعض مراحل الشدة أو القهر أو الجور، أو استيفاء النزعة الفنية في صياغة الفكرة، أو تصوير الإحساس، على نحو يعمق أثرهما في المتلقي"^(٦٠). وفيه كذلك وعي باتساع أفق الحياة، وإغناءً لإحساس الإنسان بما في الحياة، وتخفيفاً من نزوعه إلى القطيعة عنها والاستعلاء عليها، ودعوةً له إلى تمليّ صور الجمال في عالم الحيوان^(٦١).

٣-٤ وممّا أرتضيه في تفسير الانزياح إلى شعرية التعبير في هذه المواقف، أنّهم يربّون في أبنائهم ملكاتِ التعبير العالي، وينهجون لهم بها نهجاً قويمًا في مجاراة الناس، ومحاورتهم، ويأملون من خلالها أن يولدَ فيهم البلغاء، وهم أُمَّةٌ، للبلاغة والبيان عندها نصيب متينٌ من العناية والإكبار. وقد قال الجاحظ في هذا: "كانوا يُزوّون صبيانهم الأرجاز، ويعلمونهم المناقلات، ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الإعراب؛ لأنّ ذلك يفتق

(٥٨) الأزمئة والأمكنة ٢/٢٤. واللسان (لذم)، وفيه: "الأرنبُ خُدْمَةٌ...تسبق الجمع..."، وخُدْمَةٌ: سريعة، ولُدْمَةٌ: ثابتة العدو لازمة له.

(٥٩) الأزمئة والأمكنة ٢/٢٤. وعَفَطت العنز: عطست، ونَفَطت: مثلها، وقيل: نثرت ما بأنفها، وقيل: نفطت إبتاع، وكذلك باذق إبتاع لحاذق.

(٦٠) إنطاق الحيوان في تراثنا الأدبي ٥٢.

(٦١) المرجع السابق، ص ٥٥.

اللَّهَاءَ، ويفتح الجِزْمُ^(٦٢). ونقل، أيضاً، عن بعض العرب أنه يقول: "لولا الدُّرْبَةُ وسوء العادة لأمرتُ صبياننا أن يماريَ بعضهم بعضاً"^(٦٣).

وفي الوقت نفسه - ومع ميلي إلى تفسير هذه الأسجاع تفسيراً عميقاً - أرى فيها ميلاً إلى الإبهاج باللغة، بتوظيف ذخائرها اللفظية، وطاقاتها البيانية؛ لأنَّ بعض تلك الأسجاع - وبخاصة ما أنطِقَ فيه الحيوان - لا يخلو من تصوير مضحك، فيه رغبة في التنفيس، وإزجاء الهموم، وتخفيف طوارق الدهر عليهم.

وفيهما بعد ذلك تلوين لأساليب الخطاب، وإرهاق للغة، وتشقيق لطرقه في التخيل والسرد والحوار، يُدني القائل من عالم غني، مليء بالغرائب، ويُدني المتلقي من الجمع بين الفائدة والمتعة^(٦٤).

٣-٥ ولا أجد ما يمنع من تفسير أسجاعهم في الحيوان على أنها رموز أو أقنعة لضروب الناس^(٦٥)، إذ فيهم الضعيف المعتز، الذي يغالب ضعفه مثل المعزى: "العظمُ دقاق، والجلدُ رقاق"، وفيهم القادر على مغالبة الدهر، يملك مثل ذلك الحيوان "حافراً كالظُرر، وجبهةً كالحجر"، وفي الرمز بهذا الحيوان ذي الحافر نوع من التنفيس بالهزء به.

وفي الناس الكلّ الذي يقوم بغيره، ولا بدُّ له من أن يُسَاد: "ألوي ذنبي، وأريض عند باب أهلي".

(٦٢) النبان والتبيين ٢٧٢/١. والجِزْمُ: الحلق. (نقلا عن هارون محقق النبان)

(٦٣) السابق، نفسه.

(٦٤) انظر: إنطاق الحيوان في تراثنا الأدبي ٥٥.

(٦٥) انظر: السابق ٤٧.

فهل كان هذا ضرباً من الرمز المبكّر؟ إنني أميل إلى تحميل هذه النصوص كثيراً من الدلالات غير الساذجة؛ لأنّ من يقرأ في أدب العرب، يجد من المقاصد البعيدة ما يؤيد هذا المسلك في التفسير الرمزي لأسجاعهم.

٤- أسجاع أخرى:

٤-١ ومما يُشبهه أسجاع الأنواء بعض ما قيل في مظاهر الخصب، مثل قول العرب: "شهرٌ ترى، وشهرٌ ترى، وشهرٌ مرعى"^(٦٦)، وهم يعنون تدرّج آثار المطر، ففي الشهر الأول ترى الأرض ندية، وفي الثاني تظهر بوادر العشب، فأنت "ترى" مبادئه، وفي الثالث ينمو العشب، فيصبح مرعى.

وبيّن ما في هذا النص من إيجاز يؤدي المعاني بأسلوب فيه انزياح إلى شعرية التعبير، وفيه كذلك تكثيف دلالي يستوعب تدرّج أحوال التراب.

وتقطيع هذا المعنى الواسع في جمل ثلاث قصار، يتماهى مع ما يشعر به القائل من فرح يتدرّج به من فرحة بالمطر، فاحتفالٍ بظهور العشب، ثم ارتياحٍ واطمئنانٍ لاختضار الأرض وابتداء الرعي.

وكانما تعبّر هذه الجمل المتوازنة عن حال العربي إبان المطر وحين نبات الربيع، فهو في نجعة وارتياح، يتنقّل مثلما تنقّلت الجمل الثلاث.

(٦٦) أدب الكاتب ٩٦، وعدّه الميداني مثلاً.

٢-٤ ومثلما أنطق العرب القمر وبعض الحيوان، أنطقوا كذلك بعض العشب بكلم طريف، فالينمة^(٦٧) تقول: "أنا الينمة، أغبُّ الصبي قبل العتمة، وأكبُّ الثَّمال فوق الأكمة"^(٦٨).

وقول الينمة ينطوي على الفخر، فالابتداءً بضمير الفصل: (أنا) متواشجٌ مع نفسية العربي المائلة إلى الفخر بالحسب، والتباهي بالقدرة. ثم إردافه باسمها معرفاً (الينمة) للدلالة على أنها معروفة ليست بنكرة. ثم وصفها نفسها بجملتين وُظِّفتَ فيهما الاستعارة توظيفاً بديعاً، كل ذلك منح هذا النصَّ حيويةً تعبيريةً تجعله يعلق بالذهن.

وفي هذا القول على لسان الينمة نوع من المعرفة بالبيئة، وضرب من التعريف القسري بها، إذ إنهم يضطرون أبناءهم ومن يسمعهم إلى المعرفة اضطراراً، وهي ليست معرفة عابرة، بل فيها نفع كبير؛ لأنَّ أغلبهم سكان بوادٍ، تؤزِّم الحاجة إلى أن يأكلوا نبات الأرض في كثير من الأحيان، فإذا أدركوا ضروب النباتات، وعرفوا النافع والضار، تكيفوا مع هذه البيئة. ولن ينسوا - على تقدير القائل في الأقل - ما قيل في هذه النبتة؛ لأنَّ الصياغة قريبة إلى نفوسهم، وهي لا تخلو - حين يتخيَّل السامع الينمة فتاةً تخطر متمائلة، وتتحدث متغنجة - من إشاعة بهجة وأنس، قد يكونون - على توالي السنين، وتواتر الحروب - في ميسس الحاجة إليها.

٣-٤ وحتى المرض صار في خيال العربي شاعراً، فالحُمى تقول: "أنا أمّ ملِّدم: آكل اللحم، وأمصُّ الدم"^(٦٩).

(٦٧) الينمة: عُشبة من البقول، إذا رعتها الماشية كثرت رغوّة ألبانها.

(٦٨) مجالس ثعلب، القسم الأول ٢٨٥، واللسان (بنم)، وحدايق الآداب ٢٠٣ وفيهما "بعد

العتمة". وأغبق: من الغبوق، وهو شرب العشي، والعتمة: ثلث الليل الأول، والثَّمال كهيئة

زبد الغنم. والمعنى: ذرِّي يُعَجِّل للصبي؛ لأنَّه لا يصبر.

(٦٩) اللسان (ندم).

إنَّ تأمّل هذا التعبير الموجز في جمل ثلاث، يضع بين أيدينا نتائج مهمة عن أساليب العرب في أسجاعهم الاجتماعية، فهم كَتَبُوا الحُمَى أول الأمر، وجعلوها تعرّف السامع بنفسها، فصارت بهاتين الصفتين كالبشر، أو هي بشر، فهي ذات كُنْيَة مثلهم، والكنية كرامة لصاحبها^(٧٠)، وكنيتها مفزعة، لأنَّ اللَّدْم هو ضرب الخدِّ^(٧١)، وضربه لا يكون في الغالب إلا عند حلول المصائب، ثم هي تعرّفهم نفسها بصفتين شديديّ الوقع، فهي تأكل اللحم (لحمهم)، وتمصُّ الدم (دمهم).

وشعرية التعبير هنا في كونها تمثّل تجاه السامع كرية المنظر، وهنا تبدو المفارقة اللفظية؛ فالمعنى المقصود مخالف للمعنى الظاهر^(٧٢)، إذ تُكَوِّن هذه الجمل صورة فنية، ينشط لها الخيال - فنياً - وإن كانت تثير الفزع - واقعياً - ، وهذا ما أراد الساجع؛ فهل كان قاصداً لغير إحداث الأثر بطريق اللغة وطاقتها الفنية؟

٤-٤ ومن أسجاعهم الأخرى قولهم: "الأزواج ثلاثة: زوجٌ مهْرٍ، وزوجٌ بهْرٍ، وزوجٌ دَهْرٍ"^(٧٣).

إنّها تعبيراتٌ محكمة موجزة، وكأنّها نبراس أو دستور للنساء، يتعاملن به مع من يرغب في الزواج بهنّ، ولكنه دستور يتوسّل بشعرية التعبير، مفيداً من طاقات اللغة ومخزونها اللفظي، الذي يُسعف القائل في انتقاء ما يوفّر له إيقاعاً سجعياً فيه لزوم ما لا يلزم، وذلك أدعى لعلوقه بالأذهان، وتأثيره في القلوب قبل الأسماع.

(٧٠) انظر: ربيع الأبرار ٣٨٣/٢.

(٧١) اللسان (لدم).

(٧٢) انظر: المفارقة والأدب ٢٦.

(٧٣) اللسان (بهر). وزوج مهر: رجل لا شرف له، فهو يُسني المهر ليرغب فيه، وأما زوج بهْر فالشريف وإن قلّ ماله تتزوجه المرأة؛ لتفخر به، وأما زوج دهر فكفوها. وقيل في تفسيره: يبهر العيون بحسنه، أو يُعدُّ لنوائب الدهر، أو يؤخذ منه المهر.

خاتمة:

عاش العرب في بلاد مجدبة، تظى عليها الصحراء، ولا يكاد المطر وجود فيها؛ ولهذا حاولوا تطرية جفافها بكلام موقَّع مسجوع، لا يرضى بأن يصف تلك الأحوال بمنطق عادي، بل يملؤه بكلِّ ما اقتدر عليه من صنوف الإبداع الفني، وهو ما استعرت له مصطلح (الشعرنة).

إنَّ شعرنة الحياة ظاهرة في هذه النصوص، وهي شعرنة تجنح إلى تخفيف آثار تقلب الحياة، وتواتر صروفها، وتبدل مظاهرها، ويُقصد بها تسهيل صعابها، بإضفاء هذه الصبغة الشعرية على أوصافهم لمظاهر الكون، وصنوف الموجودات من حيوان ونبات وغيرهما.

لقد أصبح كلُّ شيء في حياة العرب نابضاً بالحياة، فتقلَّب الأنواء وما يتبعها من شدائد وغيرها، يصير لوحاتٍ فنية بديعة، والقمر يتكلم بمنطق البلغاء، والحيوان قادر على مجازبتهم القول، بفصاحة وبلاغة، والنبات يفخر، والمرض يهدد...

وليس كلام هذه الكائنات مجرداً من المشاعر والإحساس العالي، بل هو ضاحج بمشاعر فياضة، ورغبات دفيئة، تجعل الباحث يعدلُّ إلى تفسيره تفسيراً رمزياً.

وهذه الأسجاع تشترك في اتصالها بالحياة، ومزاوجتها بين التجربة الشخصية، والقدرة الذهنية^(٧٤)، وفي اعتمادها الإيحاء، وتحريكها قوى الحدس عند المتلقِّي^(٧٥)؛ لاعتمادها لغة فنية عالية، تفجر طاقات اللغة، وتفيد من ذخائرها البيانية. وهي بهذا

(٧٤) انظر: محاورات مع النثر العربي ٣٥٣.

(٧٥) راجع: الصورة الفنية في النقد الشعري ٨٩-٩٠.

"تكشف عن المعنى الأعمق للحياة، وتقود إلى بعث الخير والجمال فيها بطريقة مخصصة"^(٧٦).

ويمكن أن نعدّ هذه الأسجاع بألوانها المختلفة ضرورياً من ثقافة شعبية، تشكّل إرثاً تاريخياً لا يمكن إغفاله، بعد أن أسهمت في صياغته التجارب والملاحظات الدقيقة، والقدرات البلاغية والبيانية العالية.

الملحق الأول

الأسجاع في الأنواع:

قال فقيه العرب:

إذا طلع النجم، فالحرُّ في حَدم، والعُشبُ في حطم، والعاناتُ في كَدم^(٧٧). وأضيف في بعض الروايات: فالبرد في هدم، والفلاحون في ضجم، والعشب في صلُم^(٧٨).

إذا طلع النجم، اتَّقِيَ اللحم، وخِيفَ السُّفم، وجرى السرابُ على الأكم.

إذا طلع النجم عُديّة، ابتغى الراعي شُكّيّة^(٧٩).

إذا طلع النجمُ عُديّا، ابتغى الراعي سَفِيّا.

(٧٦) السابق ٨٨-٨٩.

(٧٧) الحدم: توقّد النار، والحطم: التكسر، والعانات جمع عانة، وهي القطيع من حُمُر الوحش، والكدم: أن يعضَّ بعضها بعضاً.

(٧٨) من معاني كلمة (ضجم) اعوجاج في الأنف والشدق، وقد يكون المراد بها تمعّر وجوههم لما تقاسي نغمهم من شدة الحر. والصلم: القطع.

(٧٩) الشُكّيّة مصعّر (شكوة)، وهي وعاء من جلد كالدلو أو القرية الصغيرة. يُراد أنه لا يستغني عن الماء.

إذا طلع النجم عشاءً، ابتغى الراعي كساءً.

إذا أمسى النجمُ بَقْبَل، فشهرُ فتىٍّ، وشهرُ جَمَل^(٨٠)، وإذا أمسى النجمُ بَدَبَر، فشهرُ نتاجٍ وشهرُ مطر^(٨١)، وإذا أمسى الثريا قَمَةً راس، فليلَةُ فتىٍّ وليلةُ فاس. وقيل: إذا أمسى النجم قَمَ رَأْس، فليلُهُ فتىٍّ وفأس^(٨٢).

إذا طلع الدَّبْران، توقَّدت الحِرَّان، واستعرت الدَّبَّان، ونشَّت العُدْران، وترامت بأنفسها حيث شاءت الصبيان^(٨٣).

إذا طلعت الهقعة، تقوَّض الناسُ للقلعة، ورجعوا عن النُّجعة، وأورست الفقعة، وأردفتها الهنعة^(٨٤).

إذا طلعت الهنعة، طلب الناسُ النُّجعة، وأحبوا إلى الوليف الرجعة^(٨٥).

إذا طلعت الجوزاء، توقَّدت المعزاء، وكنتت الظِّباء، وعرقت العلباء، وطاب الخباء^(٨٦).

(٨٠) بَقْبَل: أي أول الليل في الربع الشرقي من السماء، وحينئذ يكون اغتلام الفتيان وهيجان الإبل. وقيل في تفسيره غير هذا.

(٨١) بَدَبَر: أي أول الليل في الربع الغربي من السماء مدبرة للغروب، وحينئذ يكون وقت نتاج الغنم، ووقت المطر.

(٨٢) يعنون أنَّ الفتى يحتطب فيها بالفأس؛ لأنَّه لا بدَّ فيها من الصِّلاء.

(٨٣) الحِرَّان: جمع حَرِيز، وهو الغليظ من الأرض، ونشَّت: نضبت.

(٨٤) وتقوَّضوا للقلعة: قوضوا بيوتهم للرحيل، والإيراس: الاصفرار، والفقعة: ضرب من الكمأة، والهنعة هي رأس الجوزاء.

(٨٥) نُقِلَ أنَّه لم يُؤثر في الهنعة سجع، وفُسِّر ذلك بأنهم اكتفوا بما قيل في الجوزاء التي يعنون بها الهقعة والهنعة. انظر: الأنواء والأزمنة ٩١. وهذا السجع الذي هنا لم أجده إلا في نثر الدر، وفي تركيب الجملة الأخيرة ما يوحي بأنه قيل في زمن متأخر، فلفظ (الوليف) أشبه بالعامي منه بالفصيح.

وقيل: طلعت الجوزاء، ووافى على عودِ الحرياء. وقيل: وأوفى على عوده...

إذا طلعت الدَّرَاع، حسرت الشمسُ القناع، وأشعلت في الأفق الشعاع، وترقرق
السرابُ بكلِّ قاع.

إذا طلعت الشعري، نشف الثرى، وأجن الصّرى، وجعل صاحب النخل يرى^(٨٧).

وقيل: إذا طلعت الشعري سفراً، ولم تر مطراً، فلا تغذونَ إمراً ولا إمراً، وأرسل
العراضاتِ أثراً، يبيغينك في الأرض مَعَمراً. وقيل: فلا تلحق فيها إمراً ولا إمراً، ولا سقياً
ذَكَراً^(٨٨).

إذا طلعت النثرة، قنأت البسرة، (وقيل: شققت البُسرة) وجني النخلُ بكرة، وأوت
المواشي حجرة، ولم تترك في ذات درّ قطرة^(٨٩).

إذا طلعت الطَّرْفَة، بكرت الحُرْفَة، وكثرت الطَّرْفَة، وهانت للضيف الكلفة. وقيل:
حسنت السعفة، وصار التمر تحفة.

إذا طلعت الصَّرْفَة، احتال كلُّ ذي حِرْفَة، (وقيل: احتال كلُّ ذي حُرْفَة)، وجفر كلُّ
ذي نُطفَة، وامتيز عن المياه زُلفَة^(٩٠).

إذا طلعت العُدْرَة، فعكَّه بكرة، على أهل البصرة، وليس بعمان بُسرة، ولا لأكارٍ بها
بذرة، (وقيل: بُرة)^(٩١).

(٨٦) المَعْرَاء: الأرض الصلبة، وكنت: لزمت كئسها هرباً من الحر، والعلياء عصب العنق.

(٨٧) أجن: تعبير، والصّرى: الماء الذي طال استتقاعه.

(٨٨) الإمّر: الذكر من ولد الضأن، والأنثى إمرة، والعراضات: الإبل، والمعمر: المنزل بدار
معاش، والسقيب: مصغر سقب، وهو ولد الناقة.

(٨٩) قنأت: احمرت، وشققت: لوّنت بحمرة أو بصفرة، الحجرة: الناحية.

(٩٠) جفر الفحل: عدل عن الضراب، والامتياز: التحي، والزلفة: أدنى منزلة.

إذا طلعت الجبهة، تحانت الولهة، وتنازت السفهة، وقلت في الأرض الرُفهة^(٩٢).
وقيل: أرطبت النخلة، وحسن النخل حمله^(٩٣). وقيل: لولا نوء الجبهة، ما كان للعرب
رفهة.

إذا طلع سهيل، طاب الليل، وجرى النيل، وامتع القيل، وللفصيل الويل، ورُفع
كيل، ووُضع كيلٌ وقيل^(٩٤). وقيل: برد الليل، وخيف السيل، وكان لأم الحوار الويل^(٩٥).
إذا طلعت الزيرة، طابت التمرة.

إذا طلعت الخراتان، أكلت أم جردان^(٩٦). وزيد في رواية: وتزينت القنوان.
إذا طلعت العواء ضرب الخباء، وطاب الهواء، وكُره العراء، وشئ السقاء^(٩٧).
وقيل: لم يبق في كرم جناء، واكتس الطباء، وأمن على عوده الحرياء^(٩٨).

(٩١) العكة: هجير من غير ربح، والعكة بالبصرة: كرب يصيبهم أيام شدة الحر في وجه
الصباح، معه ندى يكاد يأخذ بالأنفاس، والأكار: الرزاع.

(٩٢) الولهة: جمع واله، وهي التي فقدت ولدها، فكاد لبنها يذهب جزءاً، والسفهة جمع سفيه،
وإنما ينزو أي يئبُ بعضهم على بعض بطراً؛ لأنهم في خصب من اللبن والتمر، والرُفهة:
واحدة الرُفّه، وهو ما بقي من المداوس من التبن بعد إخراج الحب منه.

(٩٣) كذا، وهي رواية نثر الدر، و أغلب ما فيه مصحف أو محرف.
(٩٤) الفصيل: ولد الناقة إذا فُصل عن أمه، وجعل له الويل؛ لأنه حين يُفصل عن أمه يهزل،
والقيل: نومة الظهر، وقيل: الشرب في ذلك الوقت.

(٩٥) الحوار: ولد الناقة.
(٩٦) الخراتان: نجمان من كواكب الأسد، واحدهما خراة، وأم جردان: نخلة بالحجاز، يتأخر
إدراكها.

(٩٧) قال أبو حنيفة الدينوري: قيل للعواء عواء البرد؛ لأن البرد مسترعف بها، فإذا هي
طلعت لم يأت يوم إلا وهو منه في شباب، إلى أن تنتاهي في بزكي الشتاء. ربيع الأبرار
٨٨/١. وشئ السقاء: يبس ويرد.

إذا طلع السَّمَاءُ، ذهبَت العِكاكُ، واستفاهت الأحناءُ، وقَلَّ على الماء اللِّكَاكُ^(٩٩).

إذا طلع العَفْرُ، جاد القَطْرُ.

إذا طلع العَفْرُ، اقشَعَرَ السَّفْرُ، وترَبَّلَ النَّضْرُ، وحسُنَ في العين الجمر^(١٠٠).

إذا طلعت الرُّبَايُ، أهدتُ لكلِّ ذي عيالٍ شانا، ولكلِّ ذي ماشيةٍ هوانا، وقالوا: كان

وكانا، فاجمع لأهلك ولا تَوَانِي.

إذا طلع الإكليلُ، هاجت الفحولُ، (وقيل: هبَّت) وشُمَّرتِ الذبولُ، وتُخُوِّفتِ السيولُ.

إذا طلع القلبُ، جاء الشتاءُ كالكلبِ، وصار أهلُ البوادي في كَرْبٍ، ولم تُمَكِّنَ

الفحلُ إلا ذاتُ ثَرَبٍ^(١٠١).

إذا طلع الهَرَّارَانُ^(١٠٢)، هزلت السمانُ، واشتدَّت الزمانُ، ووحَّوَحَ

الوُلْدَانُ^(١٠٣). (وقيل: جُوعَ الوُلْدَانِ).

إذا طلعت الشَّوْلَةُ أَعجلت الشَّيْخَ البوْلَةَ، واشتدَّت على العيالِ العَوْلَةُ، وقيل شتوَةٌ

رَوْْلَةُ^(١٠٤). وقيل: أتاك الشتاءُ بصَوْلَةٍ، وخرج النحلُ وللطيرِ عليهنَّ دولة.

(٩٨) جناء: جنى، واكتست الطباء: لزمَت كُنْسُها هرباً من الحرِّ.

(٩٩) العكاك: جمع عكَّة وعينها مثلثة، وهي شدة الحرِّ مع سكون الريح، واستفاهة الأحناء:

شهوة الطعام، واللكاك: التزاحم والتدافع.

(١٠٠) السَّفْرُ: المسافرون، وترَبَّلَ: نبت له ورق.

(١٠١) ذات ثرب: أي سمينه، وحُصِّتَ بتمكين الفحل، لأنها أحمل للبرد من الهزيمة.

(١٠٢) هما: قلب العقرب والنسر يطلعان معاً. وحزَّفتِ الكلمة في بعض المصادر إلى

(الهزاران، والهداران)، وإنما سُمِّيَا (الهرارين)؛ لهرير الشتاء عند طلوعهما. انظر: الأنواء

والأرمنة ١١٠.

(١٠٣) ووحوة الوُلْدَان: حكاية أصواتهم إذا قالوا (أح أح) من البرد.

(١٠٤) العَوْلَةُ: الحاجة، والرَّوْلَةُ: المنكرة.

إذا طلع العقرب، جمَسَ المَدْنَب، وقَرَّ الأَشْيَب، (وقيل: قَرْب)، ومات الجُنْدُب^(١٠٥).

إذا طلعت النعائم، التَّتَطت البهائم^(١٠٦)، من الصقيع الدائم، وخلص البرد إلى كلِّ نائم، وتلاقت الرعاء بالنمائم. (وقيل: توسَّفت التهائم)^(١٠٧). وقيل: ابيضَّت البهائم، من الصقيع الدائم، وأيقظ البردُ كلَّ نائم. وقيل: إذا طلعت النعائم، تمَّ الليل للنائم، وقصُر النهار للصائم، وابيضَّت...، وقيل: إذا طلع النعام، كثر الغمام.

إذا طلعت البلدة، حمَّمت الجعدة، وأكلت القشدة، وقيل للبرد: اهدَه^(١٠٨). وقيل: إذا طلعت البلدة، رَعلت كلُّ ثُدَّة، وقيل: علت الناسُ بلدة^(١٠٩). وقيل: إذا طلعت البلدة، علت الناسُ بلدة.

إذا طلع سعد الذابح، حمى أهله النابح، ونفع أهله الرائح، وتصبَّح السارح، وظهرت في الحيِّ الأنافح. وقيل: انحجزت الضوابح، ولم تهرَّ النوابح، من الشتاء البارح^(١١٠).

إذا طلع سعد بُع، اقتحم الرُّبع، ولحق أهله الهُبع، وصيد المرع، وصار في الأرض لُمع. وقيل: تشكَّى كلُّ رُبع^(١١١).

(١٠٥) جمَس: جمد، والمَدْنَب: مجرى الماء إلى الرياض، والأشْيَب: الثلج والجليد.

(١٠٦) التَّتَطت: لصق بعضها ببعض.

(١٠٧) توسَّفت التهائم: تقشر وجه الأرض من شدة البرد.

(١٠٨) الجعدة: نبت، وحمَّمت همَّمت بالإطلاع، واهده: أي اهدأ؛ لشدة ما يقاسون منه.

(١٠٩) رَعلت: نشطت، والثُدَّة: تلاد المال، وأراد به أن المواشي تنشط في هذا الوقت. والبلدة من التبلد، يريد أنَّ أيام هذا الوقت تطاولت، فضاقوا به، وعلتهم بلدة.

(١١٠) الأنافح: جمع إنْفَحَة، وهي صغار الضأن والمعز حين ترعى النبت، أو هي شيء أصفر يخرج من بطن الجدي، ولا يخرج إلا بعد أن يرعى الربيع في أوله، والضوابح: الثعالب وظباء الجبال.

(١١١) اقتحام الرُّبع: إسرعه في عدوه، لأنَّه قد قوي، والرُّبع: ما نتج في أول النتاج، والهُبع: ما نتج في آخر النتاج، وهو ضعيف، والمرع: نوع من الطير أكثر ما يرى في الخضرة والعشب، وصار في الأرض لُمع: كناية عن العشب.

إذا طلع سعدُ السعود، نضر العود، ولانت الجلود، وكَرِهَ الناسُ في الشمس القعود.

إذا طلع السعد، كثر التَّعد^(١١٢).

إذا طلع سعدُ السعود، ذاب كل جمود، واخضرَّ كلُّ عود، وانتشر كلُّ مَصْرود^(١١٣).

إذا طلع سعدُ الأخبية، رُمَّت الأسقية، (وقيل: رُمَّت، وقيل: دُهنت)، ونُزِلت (وتدلَّت) الأحوية، وتجاوزت الأبنية^(١١٤).

إذا طلعت الدَّلُو، هيبَ الجزو، وأنسلَ العفو، وطلب الخُلُو اللهُو^(١١٥).

وقيل: إذا طلعت الدَّلُو، فالربيع والبدو، والصيف بعد الشتاء.

إذا طلعت السمكة، أمكنت الحركة، وتعلَّقت الحسكة، ونُصبت الشبكة، وطاب الزمان للنسكة^(١١٦).

إذا طلع الحوت، خرج الناس من البيوت.

(١١٢) التَّعد: العشب الغض.

(١١٣) المَصْرود من آذاه الصَّرْد والصَّرْد، وهو البُرْد.

(١١٤) الأسقية: جمع سقاء، وهو القرية ونحوها، وإنما تُدهن لأنها تكون قد يبست في الشتاء، والأحوية: جمع حواء، وهو القطعة من بيوت الأعراب تكون مجتمعة.

(١١٥) الجزو: أصله الجزء، وهو الرُّطب، والمعنى أن الجزو يجف في هذا الوقت، فيخاف ألا تجتزئ به الإبل من الماء، كما كانت تجتزئ به قبل ذلك، إذ كان رطباً، والعفو: ولد الحمار، وإنساله أن يسقط وبره. واللَّهُو: الزواج، وإنما يطلب الخُلُو الزواج حينئذ، لأنه يكون قد خرج من ضيق الشتاء، وأمكنه التصرف.

(١١٦) الحسكة: شوكة السعدان، تتعلق بالثوب وغيره، لأنه وقت شدتها، ونصب الشبكة كناية عن القدرة على صيد فراخ الطير، وطيب الزمان للنسكة لأنهم يتمكنون من الحركة والسياحة في الأرض.

إذا طلع الشرطان، استوى الزمان، وخضرت الأغصان (وحضرت الأعطان أو الأوطان)، وتوافدت (وتوافت) الأسنان، وتهادت الجيران، وقيل: هان الزمان، وبات الفقير بكلّ مكان. وقيل: طلع الشرطان، وألقيت الأوتاد في الأغصان^(١١٧). وقيل: ألقت الإبل أوبارها في الأعطان، ويوشك أن يشتدّ حرّ الزمان.

طلعت الأشرط، ونقصت الأنباط^(١١٨).

إذا طلع النطح، انتشر السرح، وكثر اللقح^(١١٩).

إذا طلع البطين، اقتضى الدين، وظهر الزين، واقتفى بالعمار والقين^(١٢٠)، وتزينت الأرض كلّ الزين. وقيل: طلعت الأرض بكلّ زين، وحسنت في كلّ عين^(١٢١).

(١١٧) حضور الأوطان كناية عن الرجوع عن البوادي إلى أوطانهم، لأنّ مياه الغدران تقل حينئذ.

(١١٨) الأنباط: المياه المستخرجة من الأرض كالآبار.

(١١٩) النطح هو الشرطان، ومعنى السجع يُخالف ما نُقل عن التشاؤم به. انظر: اللسان (نطح).

(١٢٠) الاقتفاء: الكرامة واللطف، والقين: الصانع لكل شيء، واقتضاء الدين دلالة على أنهم بعد رجوعهم إلى أوطانهم يقاضي بعضهم بعضاً، ويكرمون العطار والقين، لحاجتهم إليهما.

(١٢١) مصادر الأسجاع: وردت هذه الأسجاع باختلاف في العدد والرواية في: المخصص ٩/ ١٥-١٧، والأزمنة والأمكنة ٢/ ١٦٧-١٧١، والأنواء والأزمنة ٦٦-٦٩، ٧٣-٧٦، ٨٠-٨٨، ٩٠-٩٩، ١٠١-١١٣. وربيعة الأبرار ١/ ٥٧-٥٩، وحدائق الآداب ١٥٥-١٦٢، والتذكرة الحمدونية ٧/ ٣٥٨-٣٥٩، واللسان (رفه، جرد)، ونثر الدر ٢٩٥-٣٠١، والمزهر ٢/ ٥٢٩-٥٣٠، ومصادر أخرى تركت ذكرها جنوباً إلى الاختصار.

الملحق الثاني

أسجاع العرب في ليالي القمر:

قيل للقمر: ما أنت ابن ليلة؟ فقال: رضاع سُخَيْلَةٍ، حلَّ أهلها بِرُمَيْلَةٍ^(١٢٢).

قيل: فما أنت ابن ليلتين؟ قال: حديثُ أُمَّتَيْنِ بِكَذِبٍ وَمَيْنٍ^(١٢٣).

قيل: فما أنت ابن ثلاث؟ قال: حديثُ فتياتٍ غيرِ جدِّ مؤتلفاتٍ. وقيل: قليل اللبائث.

قيل: فما أنت ابن أربع؟ قال: عتمة أم رُبْعٍ، غيرِ جائعٍ ولا مُرْضِعٍ^(١٢٤). وقيل: غير

حُبْلَى...

قيل: فما أنت ابن خمس؟ قال: عشاءُ خَلْفَاتِ قُعْسٍ. وقيل: حديثُ أُسِّ^(١٢٥).

قيل: فما أنت ابن ست؟ قال: سِرٌّ وِبَتْ. وقيل: اسِرٌّ وِبَتْ.

قيل: فما أنت ابن سبع؟ قال: دُلْجَةُ الضَّبْعِ. وقيل: هُدَى لَأَسِّ ذِي الْجَمْعِ.

قيل: فما أنت ابن ثمان؟ قال: قَمَرٌ إِضْحِيَانٍ^(١٢٦).

قيل: فما أنت ابن تسع؟ قال: مُنْقَطَعُ الشَّسْعِ، وقيل: يُلْتَقَطُ فِي الْجَرْعِ.

قيل: فما أنت ابن عشر؟ قال: ثلث الشهر. وقيل: مُحْنَقُ الْفَجْرِ، أو: مُحْنِقُ الْفَجْرِ،

وقيل: أُوْدِيكَ إِلَى الْفَجْرِ، وقيل: إِلَى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ يُلْتَقَطُ الْجَرْعِ.

(١٢٢) سُخَيْلَةٌ: مصعَّرٌ سَخْلَةٌ، وهي الشاةُ أول ما تولد.

(١٢٣) الْمَيْنُ: الكذب.

(١٢٤) أم رُبْعٍ: الناقة، وعتمتها تأخير حلبها.

(١٢٥) الْخَلْفَاتُ: النوق إذا استبان حملها، وقُعْسٌ: جمع قعساء؛ وهي التي دخل ظهرها وخرج

بطنها.

(١٢٦) إِضْحِيَانٌ: مضيئة مقمرة.

قيل: فما أنتَ ابنَ إحدى عشرة؟ قال: أطلعَ عشاءً وأرى بُكرة، وقيل: وأغيبُ بسُحرة.

قيل: فما أنتَ ابنَ اثنتي عشرة؟ قال: فُويقَ البشر، في البدو والحضر.

قيل: فما أنتَ ابنَ ثلاثِ عشرة؟ قال: قمرٌ باهر، يَعشى له الناظر. وقيل: يُعشى الناظر.

قيل: فما أنتَ ابنَ أربعِ عشرة؟ قال: مقتبلُ الشباب، أغشى دُجَنَاتِ السحاب.

قيل: فما أنتَ ابنَ خمسِ عشرة؟ قال: تمَّ الشباب، وانتصف الحساب. وقيل: تمَّ التمام، ونفدت الأيام.

قيل: فما أنتَ ابنَ ستِّ عشرة؟ قال: نقص الخلق، في الغرب والشرق.

قيل: فما أنتَ ابنَ سبعِ عشرة؟ قال: أمكنت المقتِرَ القفرة.

قيل: فما أنتَ ابنَ ثمانِي عشرة؟ قال: قليل البقاء، سريع الفناء.

قيل: فما أنتَ ابنَ تسعِ عشرة؟ قال: بطيء الطلوع، بيِّن الخشوع.

قيل: فما أنتَ ابنَ عشرين؟ قال: أطلع سُحرة، وأضيء بالبُهرة^(١٢٧).

قيل: فما أنتَ ابنَ إحدى وعشرين؟ قال: أطلع كالقبس، يُرى بالعَس.

قيل: فما أنتَ ابنَ اثنتين وعشرين؟ قال: لا أطلع إلا ريثما أرى.

قيل: فما أنتَ ابنَ ثلاثِ وعشرين؟ قال: أطلع في قَتْمَة، ولا أجلو الظلْمَة.

قيل: فما أنتَ ابنَ أربعِ وعشرين؟ قال: لا قمرٌ و لا هلال. وقيل: أرى في تلك

الليال، لا قمر ولا هلال.

(١٢٧) البُهرة: وسط الليل.

- قيل: فما أنتَ ابنَ خمسٍ وعشرين؟ قال: دنا الأجل، وانقطع الأمل.
- قيل: فما أنتَ ابنَ ستِّ وعشرين؟ قال: دنا ما دنا، فما ترى مني إلا سناً.
- قيل: فما أنتَ ابنَ سبعٍ وعشرين؟ قال: أطلع بُكراً، ولا أرى ظهراً.
- قيل: فما أنتَ ابنَ ثمانٍ وعشرين؟ قال: أسبق شعاع الشمس.
- قيل: فما أنتَ ابنَ تسعٍ وعشرين؟ قال: ضئيلٌ صغير، و لا يراني إلا البصير.
- قيل: فما أنتَ ابنَ ثلاثين؟ قال: هلالٌ مستبين، وقيل: مستتير^(١٢٨).

(١٢٨) مصادر هذه الأسجاع: وردت هذه الأسجاع إلى الليلة العاشرة في: المخصص، ٩/٢٩، والأيام والليالي والشهور ٦٢-٦٤، وأمالي المرتضى ١/٨١، ونثر الدرّ ٦/٥٩، والتذكرة الحمدونية ٧/٣٥٤، وحدائق الآداب ١٦٥، واللسان (ربغ، عثم)، والمزهر ٢/٥٣٠-٥٣١. ويُقِل عن الزجاج: "لم تقل العرب في صفة ليلة بعد العشر"، التذكرة الحمدونية ٧/٣٥٥.

وورد ما قيل فيما بعد العشر منسوباً إلى الأصمعي وغيره في: التذكرة الحمدونية ٧/٣٥٦، والأزمنة والأمكنة ٢/٦٢-٦٣، وأمالي المرتضى ١/٨١، والمزهر ٢/٥٣١-٥٣٢. وفي بعض هذه المصادر تحريفات وتصحيحات، لم أر ضرورةً لذكرها اختصاراً.

جريدة المصادر والمراجع

- إحكام صنعة الكلام، أبو القاسم الكلاعي الإشبيلي (ت أواسط القرن السادس)، تحقيق: محمد رضوان الداية، عالم الكتب، بيروت، ط الثانية ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- الأزمنة والأمكنة، أبو علي المرزوقي (ت ٤٢١هـ)، تحقيق محمد نايف الدليمي، عالم الكتب، بيروت، ط الأولى، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.
- أسماء النجوم في الفلك الحديث، عبد الرحيم بدر، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، مج ٥٩، ج ١، ربيع الأول ١٤٠٤هـ / كانون الثاني ١٩٨٤م.
- أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)، الشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط الأولى، ١٣٧٣هـ.
- إنطاق الحيوان في تراثنا الأدبي، عبدالكريم الأشتر، مجلة الفيصل، العددان ٣٧١-٣٧٢، الجماديان ١٤٢٨هـ / مايو-يوليو ٢٠٠٧م، ٤٦-٥٥.
- الأنواء والأزمنة، عبدالله بن حسين بن عاصم النقفي (ت ٤٠٣هـ)، تحقيق: نوري حمودي القيسي، ومحمد نايف الدليمي، دار الجيل، بيروت، ط الأولى، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
- الأيام والليالي والشهور، الفراء (ت ٢٠٧هـ)، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط الثانية ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، عبد المتعال الصعيدي (ت بعد ١٣٧٧هـ)، مكتبة الآداب، مصر، ط السابعة، د.ت.

البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط
الرابعة ١٩٧٥م.

التذكرة الحمدونية، محمد بن حمدون (ت ٥٦٢هـ) تحقيق: إحسان عباس وبكر
عباس، دار صادر، بيروت، ط الأولى ١٩٩٦م.

جماليات الأسلوب، فايز الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق،
ط الثانية، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.

حدائق الآداب، عبدالله بن محمد بن شاهمزدان الأبهري (ت أواخر القرن
السادس)، تحقيق: محمد بن سليمان السديس، ط الثانية، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.

الحيوان، عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق عبدالسلام هارون، دار
إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت. (مصورة عن طبعة مصطفى البابي الحلبي).

الرؤية الإنسانية في حركة اللغة، عالي سرحان القرشي، كتاب الرياض، مؤسسة
اليمامة الصحفية، الرياض، العدد ٣١، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

ربيع الأبرار وفصوص الأخبار، الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: عبد المجيد
دياب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢م.

الصورة الفنية في النقد الشعري، عبد القادر الرّياضي، دار العلوم، الرياض، ط
الأولى، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م.

عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢هـ)، تحقيق: عبدالعزيز المانع، دار
العلوم، الرياض، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

عيون الأخبار، ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت. (مصورة
عن نشرة دار الكتب المصرية).

قانون البلاغة في نقد النثر والشعر، محمد بن حيدر البغدادي (ت ٥١٧هـ)، تحقيق: محسن غياض عجيل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط الأولى ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

لسان العرب المحيط، ابن منظور (ت ٧١١هـ)، إعداد وتصنيف: يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت، د.ت.

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير (ت ٦٣٧هـ)، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض، ط الثانية ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

مجالس ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (ت ٢٩١هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط الرابعة، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

محاورات مع النثر العربي، مصطفى ناصف، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ٢١٨، رمضان ١٤١٧هـ / شباط ١٩٩٧م.

المخصص، علي بن سيده (ت ٤٥٨هـ)، المكتب التجاري، بيروت، د.ت.

المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى وعلي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت.

المفارقة والأدب، دراسات في النظرية والتطبيق، خالد سليمان، دار الشروق، عمان، ط الأولى، ١٩٩٩م.

نثر الدر، الآبي (ت ٤٢١هـ)، ج ٦ تحقيق: سيدة حامد عبد العال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩م.

النثر الفني في القرن الرابع (ج ١)، زكي مبارك، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٥.